

مجلس من إملاء أحمد الغنام الرشيد

رواية د. يعقوب الغنيم

جمع:



يُعدُّ شهر رمضان المبارك موسمًا روحانيًا فريدًا يحمل في طياته أجواءً من الإيمان والخير والتقارب بين المسلمين. وعلى الرغم من ابتعادنا عن أجواء هذا الشهر الكريم الآن، تبقى دروسه وقيمته حيّة تستحق التأمل والتذكير في كل وقت، ولأن هذا الشهر الكريم يشكّل فرصة لتعزيز الجوانب الروحية والعلمية، فقد اخترنا إعادة نشر سلسلة "هوامش رمضانية" التي كتبها الدكتور يعقوب الغنيم عام ٢٠١٨، والتي تتضمن دروسًا وإملاءات دينية ألقاها الشيخ أحمد غنام الرشيد، رحمه الله. وقد كان الشيخ أحمد الغنام الرشيد شخصية علمية ودينية بارزة في تاريخ الكويت، جمع بين العلم الديني والأدب والشعر، وترك إرثًا ثقافيًا وعلميًا يستحق الإحياء والتأمل.

تتميّز هذه المقالات بأسلوبها الهادئ المتأصل في روح الإسلام، حيث تستعرض مواقف عملية من السيرة النبوية، وتتناول قيمًا أخلاقية واجتماعية من خلال الأحاديث النبوية الشريفة، مع شروحات مستفيضة ومرتبطة بواقع الحياة. وقد حمل الشيخ الغنام همّ نشر العلم والمعرفة، وسخر جهوده لتعليم الشباب وتشجيعهم على الالتزام بأخلاق الإسلام والارتقاء بالوعي الديني والثقافي.

إن هذه السلسلة لا تسلط الضوء فقط على الدروس الدينية، بل تبرز أيضًا شخصية الشيخ الغنام الذي كان رمزًا للتواضع والحرص على نشر العلم، عبر مكتبته الغنية التي فتحت أبوابها لطالبي المعرفة. كذلك تسلط المقالات الضوء على دوره كإمام وخطيب في مساجد الكويت، حيث جمع بين الإمامة والتوجيه الديني، مما أضاف لرسائله تأثيرًا مجتمعيًا كبيرًا.

نسعى من خلال إعادة نشر هذه السلسلة إلى إحياء تراث الشيخ أحمد غنام الرشيد وتعريف الأجيال الجديدة بمكانته العلمية والثقافية، وتشجيع الباحثين والمهتمين على استكمال مسيرة البحث والكتابة حول حياته وإسهاماته.

نأمل أن يكون هذا العمل إضافة قيّمة للمكتبة الإسلامية الكويتية، ووسيلة لتذكيرنا جميعًا بأهمية نشر العلم والمحافظة على التراث الديني والثقافي.

هوامش رمضانفة (١)

تنويه

«مع بداية شهر رمضان المبارك نبدأ في نشر هوامش رمضانفة ذات علاقة بهذا الشهر الكريم، ثم نعود إلى ما كنا ننشره من الهوامش وبهذه المناسبة أتقدم إلى الجميع بالتهنئة بمناسبة قدوم رمضان أعاده الله بالخير والسعادة على الكويت والأمة الإسلامية».

رَدَدت اسم الشيخ الفاضل أحمد غنام الرشيد - رحمه الله - في كثير من المواضع التي مرّت في الكتابات التي قدّمتها خلال الفترة الماضية. وهو رجل يستحق الذكر لأسباب عديدة. فهو من محبي العلم الديني، ومحبي الأدب، ومن الحريصين على القراءة ومتابعة الدرس حتى بعد أن وصل إلى مرحلة مرموقة من العلم. وهو أيضاً - متصل بالناس لا ينقطع عنهم، وله صداقات متينة مع عدد كبير من الأصدقاء الذين لا ينقطعون عنه ولا ينقطع هو عنهم... ولذلك فإن ذكره محفوظ في قلوب، محببه إلى هذا اليوم.

له مكتبة حافلة بالكتب المتنوعة، وكان لا ينقطع عن مكتبات بيع الكتب

بجثاً عن كل جديد فإذا وجد كتاباً أعجبه اشترى منه عدة نسخ منها نسخة واحدة له، ثم يوزع الباقي على من له صلة بهم.

وله كثير من الرواد الذين يأتون إليه فيفتح لهم صدره ومجلسه ومكتبته لا يضمن عليهم بشيء إذا كانوا من طلاب المعرفة، فقد كان همّه انتشار العلم والاهتمام بالقراءة ومتابعة الدرس.

توفي الشيخ أحمد غنام الرشيد في سنة ٢٠٠٩م، وترك وراءه ذكراً عطراً، وفاز بمحبة الناس ودعائهم له، وهو يستحق الدعاء، فقد كان ناصحاً أميناً، وواعظاً نافعاً لمستمعيه، وهو ممن يعدّ من علماء الكويت، يحيط بالعلم الديني ويحفظ الأحاديث ويجيد الفقه وأصوله.

وقد حضر في طلب العلم في الكويت على عدد من علمائها المعروفين،

واستفاد من علمهم، ومنهم:

١- الشيخ عبد الرحمن الدوسري المتوفي سنة ١٩٧٩م، وكانت له مكانة علمية مرموقة، وله ذاكرة تحوي كثيراً من المعلومات الشرعية، وكانت

له صلوات مع العلماء في الكويت وفي خارجها، وكلها في مذاكرة العلم.

٢- الشيخ محمد الفارسي المتوفي سنة ١٩٨٢م، وهو من العلماء الأفاضل الذين كانت لهم حلقات درس يرتادها الطلاب؛ فيجدون فيها

الفائدة التي يرجونها.

٣- الشيخ محمد سليمان الجراح المتوفي ١٩٩٦م، وهو عالم له وزنه، وله عدد كبير من التلاميذ الذين استفادوا من مجالسه، وسيرته واردة في كتاب ألفه الدكتور وليد المنيس، ونشره مركز البحوث والدراسات الكويتية.

هذا، وللشيخ أحمد الغنام رحلات كثيرة للقاء العلماء في خارج ،

الكويت، وله معرفة بكثير من هؤلاء حتى أصبح معروفاً في الخارج كما هو معروف في وطنه.

وكانت له زيارات خاصة للأحساء بالمملكة العربية السعودية، حيث له

أصدقاء يرتاح إلى لقاءهم، وإلى تبادل المعلومات معهم، وهذا ما يثير في نفسه الرغبة في الاستمرار على الطريق الذي رسمه لنفسه.

بعد الجهود التي بذلها في تحصيل العلم، صار متمكناً من ذلك. ولقد

كان يضيف إلى اهتمامه بالعلوم الشرعية اهتماماً بالتاريخ الإسلامي، والأدب العربي بصورة عامة، والشعر بصورة خاصة، وادى به حبه للشعر إلى أن صار ينظم القصائد، ويهديها إلى صحبه ويحتفل معهم بالمناسبات التي تخصهم.

وعند استكمال تكوينه بدأ في العمل الذي تهياً له، فقد صار عالماً ملماً

بكثير من المعلومات، موضع ثقة من الناس، يسأله كثيرون منهم عن أمور دينهم وأمور دنياهم، فيجدون الفتوى الصالحة والصادقة التي تأتي عن يقين لا عن ظن، وهذا مما جعله يتصدّر للإمامة والخطابة في مساجد الكويت حتى لقد تنقل بين ستة مساجد تبعا لمكان سكنه، وتبعاً لظروفه الخاصة وكان يصلي الفروض إماماً في بعضها، ويصلي صلاة الجمعة ويؤدّي خطبتيها في بعضها الآخر.

وهذه المساجد الستة هي:

أ- مسجد ابن بحر الذي كان يقع أمام قصر السيف، وهو قديم النشأة
إذ من المؤكد أنه قد تم تجديده في سنة ١٧٤٥م، تم جرت عليه تجديدات
أخرى هدم بعدها بدون داع يدعو إلى ذلك، مع أهميته باعتباره أثراً يدلّ
على نشأة الكويت.

وكان من أئمة الشيخ أحمد غنام الرشيد.

ب مسجد المطوع، في وسط المدينة بالقرب من مبنى سوق الأوراق المالية الحالي؛ تأسس المسجد في سنة
١٨٧٠م، وكان الشيخ أحمد غنام الرشيد ممن تولى الإمامة فيه.

ج - مسجد دسمان الكبير، وموقعه في داخل قصر دسمان، وقد اسسه جابر الأحمد الصباح في سنة
١٩٢١م، وكان الشيخ أحمد غنام الرشيد من أئمة هذا المسجد.

د مسجد الحداد، ويقع في شارع علي السالم بوسط العاصمة، وقد
بني في سنة ١٧٧٦م، وجُدّد في عدة مرات، وكان الشيخ أحمد غنام الرشيد من أئمة.

هـ - مسجد العجيري، وهو في حي الصالحية (قبلي العاصمة)، تأسس
سنة ١٩٣٤م بجهد المرحوم محمد صالح العجيري.

وفي سنة ١٩٧٥م كان الشيخ أحمد غنام الرشيد إماماً وخطيباً فيه.

و- مسجد الدّمّاج، تأسس في سنة ١٩٠٧م، وقد جدّده هلال المطيري، فانتقل اسم المسجد إليه،
وكان تجديده له لأول مرة في سنة ١٩١٦م.

وكان الشيخ أحمد غنام الرشيد إماماً وخطيباً في هذا المسجد.

هذا ولقد كان هذا الرجل المخلص للعلم والمثابر على المطالعة والدرس،

لا ينقطع عن إلقاء الأحاديث على المصلين في الفترات التي يراها مناسبة، وكان يجد آذانا صاغية، وقلوبا
متفتحة.

ولقد صارت له حلقة درس خاصة به يغشاها عدد من الشبان الذين

استهواهم . طلب العلم. وقد حدّثني عن ذلك فقال:

كنت ألقى درسا في مسجد العجيري بعد صلاة عصر يوم من الأيام،

وعندما انتهيت من تقديمه أقبل عليّ رجلان في سنّ الشباب فقالا لي:

- نحن نستمع إلى أحاديثك باستمرار، ونتمنى أن يكون لديك الوقت لكي تلقي علينا دروسا خاصة على منوالها. ونحن مجموعة في سبعة أشخاص يهمهم أن يكتسبوا العلم من مصادره البشرية وأنت واحد . من هذه المصادر.

يقول الشيخ:

- وقد رحبت بهم، وأبديت استعداداً لتلبية رغبتهم لأنها تتماشى مع

الرسالة التي أخذت على عاتقي الاهتمام بها وهي نشر العلم.

واتفقت معهم على أن يتم . ذلك أسبوعياً بعد صلاة العصر في المسجد

الذي أصلي فيه إماماً وهو مسجد العجيري، وأن يكون ذلك في مساء كل يوم أحد.

وتم الاتفاق على ذلك. وبدأ الدرس الأول في موعده وأكملنا عدداً لا بأس به من الدروس كما سوف

يرد فيما بعد عندما أحكي لك ذلك.

هوامش رمضانية «٢»

قال الشيخ أحمد غنام الرشيد:

جاء يوم الأحد المتفق عليه، وفيه أول جلسة من الجلسات التي وعدت الفتيان بالتحديث إليهم فيها، وجلست في مكان بالمسجد بعد صلاة العصر، وعندما انصرف المصلّون أقبل الشباب الذين وعدتهم وسلّموا عليّ وجلسوا أمامي، فقلت لهم:

حياكم الله، وأنا سعيد بقدومكم ولقائكم والحديث إليكم، لأن هذا الذي سوف تسمعونه مني مفيد لكم وهو -أيضاً- مفيد لي لأنني أستذكر به المعلومات، وأندفع بسببه إلى مزيد من القراءة والاطلاع. ها نحن الآن معاً فكيف تريدون أن يكون أسلوب عملنا في هذا اليوم، وبقية الأيام التي تكون لنا فيها جلسات؟

قالوا:

نشكرك لإتاحتك الفرصة لنا من أجل التزوّد بالمعلومات التي نسعى إلى اكتسابها، ونترك لك الطريقة التي تريد أن تسير عليها في حديثك.

قلت لهم:

إذن أبدأ، وإذا بدا لأحدكم أن يسأل عن أمر متعلّق بما ألقيه عليكم فليتقدم به، حيث أتيح لكم الفرصة في آخر جلّساتنا لكي أرد على أسئلتكم.

ومن هنا أبدأ:

تعرفون أن للشريعة الإسلامية مصدرين مهمين هما القرآن الكريم، والحديث الشريف، وللقرآن وهو كتاب الله سبحانه شروح كثيرة هي التفاسير التي قرّبت معانيه إلينا ومنها:

تفسير الطبري.

تفسير القرطبي.

تفسير ابن كثير.

وهكذا إلى غير ذلك من التفاسير التي اجتهد القائلون عليها في سبيل إتقان ما عزموا على القيام به، فصارت نبراساً لكل طالب معرفة، وما ذكرناه ليس إلا إشارة، ولكن عدد كتب التفسير أكثر من ذلك.

أما الحديث فقد وردت كتب كثيرة تجمعها أهمها ما يسمّى الصحاح ومنها:

صحيح البخاري.

صحيح مسلم.

صحيح ابن حبان.

صحيح الحاكم.

وغيرها من كتب الصحاح، ومجاميع الأحاديث.

ويهمّني هنا أن أتحدث لكم عن بعض ما ورد في الحديث الشريف. وقد اخترت ما أجمع على ذكره كل من البخاري ومسلم، وهما إمامان من أئمة المسلمين في هذا المجال المهم.

وأبدأ بهذا الحديث الذي رواه الشيخان كما يُطلق عليهما عندما يُذكران. وقبل ذلك ينبغي أن أذكر لكم أن مصدر هذه الأحاديث هو كتاب: «اللؤلؤ والمرجان، فيما اتفق عليه الشيخان» الذي جمعه الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي، وطبعته وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في الكويت سنة ١٩٧٧م.

وفي أول حديث نوره اليوم أخبرنا الرسول الكريم بأن الإسلام يشبه المبنى الشامخ وأنه قد بُني على خمسة أركان ينبغي على كل مسلم ألا يخرج عنها أبداً وأن يكون في عبادته مراعيّاً لها، وذلك لأن الإخلال بها إخلال بالدين كلّهُ.

قال صلى الله عليه وسلم:

«بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان».

فهذا حديث جامع لأركان الدين، إذا تمسّك به المسلم فلن يضل أبداً، ولقد كرّر الرسول الكريم مضمون مثل هذا الحديث رغبة في تأكيده للمسلمين حتى يرسخ في أذهانهم، فيحرصوا على ما جاء فيه من قول جامع، ومما ورد عنه صلى الله عليه وسلم في هذا المعنى قوله للصحابيّ الجليل معاذ بن جبل حين أرسله إلى اليمن مفقهاً للمسلمين هناك، وداعياً إلى الإسلام حتى يدخُل فيه غير المسلمين. وفحوى الحديث:

«إنك تقدّم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا عملوا فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة من أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وتردّ على فقرائهم، وإذا أطاعوا خذ منهم وتوقّ كرائم أموال الناس».

ومما نعرفه من هذا الحديث أن عدداً من أهل اليمن قد شرح الله صدرهم للإسلام فأسلموا، وأنهم كانوا في حاجة إلى من يوضّح لهم هذا الدين، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حريصاً على إبلاغ رسالة الإسلام إلى جميع الآفاق، فاختر أحد صحابته وهو معاذ بن جبل لكي يقوم بمهمة التبليغ عنه، وأرسله إلى هذا البلد الذي لم يكن بعيداً عن منزل الوحي، ولكنه بلد واسع، تسكنه أعداد كبيرة من الناس، دخل بعضهم إلى حظيرة الإسلام، وبقي البعض الآخر على وضعه الذي كان عليه. ومهمة معاذ بن جبل كانت تشتمل على طريقتين هما: تثبيت المسلمين، وإمدادهم بكل ما يحتاجون إليه من علم بالدين الحنيف رغبة في تثبيتهم للحصول - بسببهم - على دعم لبقية أهل الإسلام، وأما الطريق الثاني فكان هو التوجّه إلى غير المسلمين من أهل تلك البلاد رغبة في اكتسابهم، وإدخالهم إلى جماعة المسلمين لما في ذلك من دعم للدعوة الإسلامية، ورفع لراية الإسلام في كل مكان، وفي الحديث نستطيع أن نطلّع على بعض الفوائد التي تدلّ على طريقة الرسول الكريم في نشر دعوته، وذلك أن يتدرّج معاذ بن جبل في دعوتهم إلى الإسلام تدرّجاً يهوّن عليهم ترك ما كانوا عليه، وذلك بأن يعرض عليهم أن يؤمنوا بالله وحده لا شريك له، فإذا تحقّق ذلك أصبح من السهل أن يُطلب منهم تنفيذ ما أمر الله به من عبادات واعتقادات وعادات كريمة.

ذلك لأنه من المطلوب منهم بعد الإيمان بالله وحده إقامة الصلوات الخمس في يومهم وليلتهم، فإذا أخذوا بهذا الأمر وأقاموا الصلوات المطلوبة المفروضة على أمة الإسلام، فإنه ينبغي عليهم أن يؤدوا زكاة أموالهم ويبيّن أن هذه الزكاة تُؤخذ من أغنيائهم، وتردّ إلى فقرائهم في تكافل اجتماعي جميل فرضه الله سبحانه على المسلمين حتى تزول الفروق الواسعة بين الأغنياء والفقراء.

وأخيراً فقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذاً ألا يأخذ كرائم أموال الأغنياء ويترك لهم ما سواها، بل إنه ينبغي أن يعدل في ذلك حتى لا يتسبّب بضرر يلحق هؤلاء نتيجة دفعهم للزكاة. إنهما عناية رسول كريم يحرص على نشر الدعوة، ويحرص - أيضاً - على أن يتقبّلها الناس بقبول حسن. وتتوقّف الآن على أمل اللقاء في اليوم القادم إن شاء الله.

هوامش رمضانفة (٣)

فقول الشفخ أحمء غنام الرشفء:

آن وقت المجلس الثالث من مجالسنا هذه؁ وحضر الففان الءفن وعءفهم بالففءف إلفهم عن بعض أمور الءفن خلال شهر رمضان المبارك؁ وقد أسعءفنا مواظبفهم على حضور اللقاءاء المففق عليها؁ إذ لم ففأفر منهم أءء منذ أن ابفءأناف فف جلسائنا وحقف الآن؁ وهذا أمر فءل على حرصهم على طلب العلم؁ واهتمامهم بالفحصفل من أف طرفق كان.

وعنءما فحلقت المجموعة الطففة حولف قلت لهم:

إن اهتمامكم وإنصاءكم فءفعان بف إلى مفزفء من الاهتمام بكم وبما أفءمه لكم خلال هذه الجلساء؁ فأنا أشعر -حقففة- بأن رغبفكم فف طلب المعرفة بلا فءوء.

وقء ففكرت -فعلاً- فف أن أفضص لكم جلساء أخرى بعء مضي هذا الشهر؁ وسوف فكون أكثر اتساعاً من جلسائنا هذه من ففء الوقت والموضوءاء.

ولقد كان هذا العرض الءف عرضفه عليهم مغرفاً إذ ما كءف أنف فقولف فف فءاروا بصوء واءء إلى إباء الرغبة فف حضور الجلساء المقفرءة فف أف وقت ففم عقءها.

وبعء هذا الاءفاق بءأف جلسفنا لهذا الفوم:

وكان أول فءفء فءكرفه هو قول رسول الله صلى الله علفه وسلم: «من كان فؤمن بالله والفوم الآخر فلا فؤء فاره؁ ومن كان فؤمن بالله والفوم الآخر فلئفكرم ضففه؁ ومن كان فؤمن بالله والفوم الآخر؛ فلقلل ففراً أو لفصمء».؀

وفف هذا الفءفء فنبفه إلى أعمال مهممة لا ففم إفمان المرء المسلم برفه؁ ولا ففم فصفقه بفوم الفساب فف الآفرة؁ إذاف لم فكن هذه الأمور الفف أشار إليها الرسول الكرفم أمام عفففه؁ وبها نعرف الفففءفء على رعاء الفار وعدم فعرففه للأءف؁ وهذا فءفء فسفءه أءافء فففرة كلها فءعو إلى رعاء الفار؛ لأن ذلك فؤءف إلى السكفنة والهءوء بفن الناس؁ وفنشر الوء بفنهم فقصفر المجموعة المقارفة فف السكن وكأنها أسرة واءءة؁ وإكرام الضفف صفة أخرى فنبغف أن ففمفز بها من فؤمن بالله والفوم الآخر؁ وآخر الفءفء ففء على عءم الفوء فف أعراض الناس؁ وعءم الفففء بالفافشة؁ وعنءما فسفم المرء فف أءء الفجالس إلى

كلام سيء فإن من واجبه بصفته مؤمناً أن يلوذ بالصمت، فهو أفضل له، وصمته دليل على إيمانه بنص هذا الحديث.

وعندما سُئل صلى الله عليه وسلم عن المسلم: من هو؟ وكيف نعرفه؟ قال: «المسلم من سلّم المسلمون من لسانه ويده»، ومعنى هذا الحديث أن المسلم ينبغي أن يكون مسلماً بعيداً عن العنف لا يُعرض الناس للأذى عن طريق اللفظ باللسان أو الضرب باليد، وهذا يدلنا على أن يكون عافاً كافاً هادئاً رزيناً لا يؤذي أحداً من المسلمين لأي سبب كان.

هذا هو وصف المسلم في الحديث الشريف، فما هو وصف المنافق؟

يقول صلى الله عليه وسلم: «أربع من كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهنَّ كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا أئتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا خاصم فجر».

وهذا التّحديد الدقيق جدير بالانتباه إليه لأن من الناس من يستسهل الكذب، ومنهم من يتهاون في أداء الأمانات إلى أهلها، ومنهم من إذا استفزته الخصومة فخاصم أحد الناس كثر أذاه، وزاد عن الحد المعقول حتى صار فاجر الخصومة مما يخرج عن نطاق المسلم الصحيح الإيمان إلى نطاق المنافقين.

هذا وتتناول الأحاديث كثيراً من أطوار الحياة ونواحي المجتمع، إضافة إلى ما تناوله من بيان العبادات والمعاملات. وقد حرص الرسول الكريم على أن يكون مربيّاً لهذه الأمة ناصحاً لها كاشفاً لها عن الأخطاء، موضحاً لها طريق الصواب.

ولقد كان ما تقدّم في هذه الجلسة من نماذج ذلك، ولكننا نريد أن نضيف إضافات لها أهميتها في وقتنا الحاضر لأن عدداً من الناس يغفل عنها ولا يدير لها بالاً أو يمنحها شيئاً من الاهتمام.

عميت أعين عدد من الناس عن موجبات الإيمان، واختلط عندهم الحلال بالحرام، بل صار البعض لا يبالي بالتفريق بين الصالح والطالح وما هو مباح وما هو محرّم، ومن ذلك ما ورد في الحديث الشريف الآتي:

قال صلى الله عليه وسلم: «ليس من رجل ادّعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر، ومن ادّعى قوماً ليس له فيهم نسب فليتبوأ مقعده من النار».

ما أكبره من مجرم، يخرج المسلم من دينه، ويدخله النار خالدًا مخلدًا فيها لا لشيء إلا لرغبته في الحصول على مصلحة دنيوية تزول بزواله هو من الدنيا، وقد وجدنا أناساً مثل هؤلاء الذين يشير إليهم الحديث الشريف أجازنا الله من سيئاتهم وهداهم سواء السبيل.

ولقد ورد التعليل في هذا الشأن في أحاديث أخرى نذكر منها الحديث التالي:

«من ادّعى إلى غير أبيه، وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام».

ومن أحاديث الحرص على علاج أسقام المجتمع وإزالة الشوائب التي تفرق بين الناس أن نرى الرسول الكريم يأمرنا بحسن معاملة إخواننا في الدين فيقول في ذلك: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر».

والحديث الشريف يتناول - كما قلنا - كثيراً من الموضوعات وهو بحر واسع لا يترك مجالاً من مجالات الحياة إلا بيّن لنا موقف الشرع منها.

وهناك حديث مهم - وكل أحاديثه صلى الله عليه وسلم مهمة - ولكن أهمية هذا الحديث تأتي بسبب توجيه ما ورد فيه إلى أمر يحدث اليوم في عدد من بلاد الإسلام، وهذا ما نراه في قوله صلى الله عليه وسلم: «من حمل علينا السلاح فليس منا».

فهل ينتبه إليه هؤلاء الذين يقتلون المسلمين، وهم يدعون الإسلام؟

وأخيراً فإننا نختتم مجلسنا هذا بالصلاة والسلام على الرسول الكريم وآله وصحبه، ونشهد أنه قد بلغ رسالة ربه، ونصح الأمة وتركها على المحجة الواضحة.

يقول الشيخ أحمد الغنام الرشيد:

هذا هو مجلسنا الرابع، وقد استقبلت الفتیان كالمعتاد، ورحبت بهم ثم قلت:

نحن نقرأ قوله سبحانه في سورة التوبة، (الآية رقم ١١٨) من قوله الكريم: «وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

وقد حكى الصحابي الشاعر كعب بن مالك الحكاية التي حدثت له ولرفيقه حين تخلّفوا عن حضور غزوة تبوك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذا هو نص حديث كعب بن مالك:

«لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك. غير أني كنت تخلّفت في غزوة بدر، ولم يُعاتب أحداً تخلّف عنها، إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوّهم على غير ميعاد. ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين تواتقنا على الإسلام، وما أحبّ أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها. كان من خبري أنّي لم أكن قطّ أقوى ولا أيسر حين تخلّفت عنه في تلك الغزاة. والله! ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط، حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة إلا ورّى غيرها. حتى كانت تلك الغزوة. غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً، ومفازاً وعدواً كثيراً. فجلّى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم. فأخبرهم بوجهه الذي يريد. والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير. ولا يجمعهم كتاب حافظ (يريد السّجل).

قال كعب: فما رجل يريد أن يتعيّب إلا ظن أن سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحي الله. وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم، تلك الغزوة، حين طابت الثمار والظلال، وتجهّز رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه. فطفقت أعدو لكي أتجهّز معهم. فأرجع ولم أقض شيئاً. فأقول في نفسي: أنا قادر عليه. فلم يزل يتمادى بي، حتى اشتد بالناس الجد. فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمسلمون معه. ولم أقض من جهازي شيئاً، فقلت: أتجهّز بعده بيوم أو يومين، ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا، لأتجهّز، فرجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل بي حتى أسرعوا، وتفارط الغزو. وهمت أن أرتحل فأدرّكهم.

وليتني فعلت! فلم يقدر لي ذلك. فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم فطفت فيهم أحزني أي لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب؟ فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه برداه ونظره في عطفه، فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنه توجه قافلاً حضري همي وطفقت أتذكر الكذب وأقول: بماذا أخرج من سخطه غداً، واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظلم قادمًا زاح عني الباطل، وعرفتُ أني لن أخرج منه أبداً بشيء فيه كذب، فأجمعت صدقه، وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قادمًا، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله، فجمته فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال: تعال، فجمت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: ما خلفك ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟ فقلت: بلى، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ولقد أعطيتُ جدلاً، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عفو الله، لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك، فقامت وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر إليه المتخلفون قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لك، فوالله ما زالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم رجلان قالوا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية، الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرًا فيهما أسوة فمضيت حين ذكروهما لي.

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتعبروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة.

ثم مضى كعب بن مالك في حديثه فقال:

«فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته، يا كعب بن مالك: أبشر، قال: فخررت ساجداً وعرفت أن قد جاء فرج، وأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قِبَلِ صاحبي مبشرون وركض إليّ رجل فرساً وسعي ساعٍ من أسلم فأوفى على الجبل وكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشّرني نزعته له ثوبيّ فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنوني بالتوبة يقولون: لتهنك توبة الله عليك، قال كعب: حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس حوله الناس، فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهناني، والله ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة، قال كعب: فلما سلّمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبرق وجهه من السرور: أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك، قال قلت: أمن عندك يا رسول الله، أم من عند الله؟ قال: لا بل من عند الله، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سر استنار وجهه حتى كأنّه قطعة قمر وكنا نعرف ذلك منه».

قال الشيخ أحمد الغنام:

ولم أشأ أن أذكر لكم كل ما ورد في هذا الموضوع المهم الذي يدلّ على صدق صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتصديقهم له، وحرصهم على رضاه، واتباع أوامره. ومن أراد أن يطّلع على هذا الموضوع كاملاً، فهو في الكتاب الذي ذكرته لكم ص ٧٥٤ وما بعدها، فهناك تفصيلات أخرى مهمة، أما ما يحتاج إلى إيضاح مما ذكرته في هذا المجلس فمكانه في المجلس القادم وهو الخامس إن شاء الله.

هوامش رمضانية (٥)

قال الشيخ أحمد غنام الرشيد:

ها نحن قد أمضينا شهر الصيام، والحمد لله على أنه أعاننا على صيامه وقيامه، وهذا هو آخر المجالس التي وعدت بها، ولم أجد أن إهماله أمر جيد بل إن ما فيه من فوائد من أمور الخير التي يدعو إليها الدين الحنيف، فمجالس مثل مجلسنا فيها تذكير وتوعية وإحياء للدين، ودعوة إلى العودة إلى مبادئه.

وكان من المقرر أن تكون جلستنا هذه جلسة الإجابة على أسئلتكم، وأنا الآن مستعد لذلك، ولكن الأمر يحتاج إلى بعض التنظيم فإنا حبذا لو كتب كل واحد منكم السؤال الذي يخطر ببالي، ثم يقدمه لي، وعند ذاك أتولى الرد على الأسئلة مجتمعة، فلا يحدث تضارب أو لغط، وأنا أطلب ذلك منكم حرصاً على الوقت. ومن أجل ذلك فسوف أتوقف لمدة عشر دقائق تُتاح لكم خلالها كتابة الأسئلة.

هاأنذا قد جمعت الأوراق الذي يحتوي على الأسئلة وسوف أبدأ بالرد وفق ما بين يدي منها:

كان السؤال الأول هو:

- هل نستطيع الحصول على معلومات عن غزوة تبوك التي ظهر لنا مما سمعناه منك أنها كانت غزوة مهمة في الإسلام؟ هل لك أن تحدثنا عنها؟ وأنا أجيبيكم:

- تبوك موضع في شمالي الجزيرة العربية أقرب ما يكون إلى الشام، وقد سميت الغزوة باسمه لأنها تمت على أرضه. وهي من الغزوات التي قادها رسول الله صلى الله عليه وسلم دفاعاً عن الإسلام ورغبة في نشره، كما كانت من وسائل تثبيت دعائم الدولة الإسلامية.

لم يزل المسلمون - في ذلك الوقت - يخشون خطر الروم وأتباعهم، وكان هؤلاء قوة متاخمة لجزيرة العرب، ولقد ثبت قيام بني الأصفر - كما كانوا يسمونهم - بالدس على المسلمين، وإرسال الجواسيس، ومحاولة تخوين البعض، وكان ذلك بلا جدوى، فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضع حداً لهذه التصرفات، وذلك بأن يبادر إلى عمل يرى به أعداء الأمة أن المسلمين قادرون على الوصول إليهم في عقر دارهم.

خرج الرسول الكريم بمن معه من المسلمين في وقت صعب إلى طريق صعب، ومع ذلك لم يتخلف من المسلمين إلا الثلاثة الذين ورد ذكرهم سالفاً وبعض المنافقين الذين لا فائدة تُرجى منهم.

ولقد تحمّل الركب الصعاب ووصل الجميع بقيادة رسول الله إلى تبوك. وهناك توقع حاكم المنطقة المجاورة الممثل للروم أن تكون المعركة قاسية عليه فتقدّم طالباً الصلح فتم ذلك، ولا تزال الوثيقة التي تثبتته في كتب السيرة.

هذا وباقي الموضوع وما دار حوله فإنه قد جاءكم في الجلسة الماضية برواية الصحابي الجليل كعب بن مالك.

وسؤالكم الثاني هو:

- هل نستطيع الحصول على معلومات عن الصحابي الجليل كعب بن مالك، وبخاصة ما ورد عن شُهوِّده ليلة العقبة الثانية؟

والجواب على ذلك هو:

لاشك في أنكم الآن تعرفون قيمة هذا الصحابي من واقع روايته الصادقة الأمانة عن كل ما حدث، وهو من أسرة كريمة، وكان يدافع بنفسه وبشعره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن الدين الحنيف. أما بيعة العقبة الثانية فكانت في أوسط أيام التشريق. وقد كانت بيعة فاصلة هي بداية النصر للإسلام والمسلمين. وقد رويت عنها حكايات كثيرة تجدونها في كتاب سيرة ابن هشام التي ضمت سيرة نبينا صلى الله عليه وسلم، وذكر فيها بداية انتشار الإسلام وانتصار المسلمين، بعد أن صدع الرسول الكريم بدعوته إلى الله، وتكاتف معه أبناء الإسلام.

وعلى هامش ذلك حدثت الحادثة التي يشير إليها سؤالكم، وهي المتعلّقة بالشاعر كعب بن مالك، في السنة ذاتها بدا لبعض الأنصار الحجاج ومنهم رئيسهم البراء بن معرور والصحابي الجليل كعب بن مالك أمر يستدعي سؤال الرسول الكريم، فذهبوا إليه قبل أن يروه في العقبة، يقول كعب بن مالك: فخرجنا نسأل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكنا لا نعرفه ولم نره قبل ذلك، فلقينا رجلاً من أهل مكة فسألناه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: هل تعرفانه؟ فقلنا: لا، قال: فهل تعرفان العباس بن عبدالمطلب عمّه؟ قلنا: نعم - وقد كنا نعرف العباس، كان لا يزال يُقدّم علينا تاجراً - قال: فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس، فدخلنا المسجد فإذا العباس جالس، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس معه، فسلمنا ثم جلسنا إليه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس: هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل؟ قال: نعم، هذا البراء بن معرور سيد قومه، وهذا كعب بن مالك، فوالله ما أنسى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: الشاعر؟ قلت: نعم، فقال له البراء بن معرور: يا نبي

الله، إني خرجت في سفري هذا وقد هدايني الله للإسلام، فرأيت ألا أجعل هذه البنية مني بظهر، فصليت إليها، وقد خالفني أصحابي في ذلك، حتى وقع في نفسي من ذلك شيء، فماذا ترى يا رسول الله؟ قال: قد كنت على قبلة لو صبرت عليها!

وهكذا تبدو سعادة كعب بن مالك بمعرفة الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه شاعر، فقد تبين له أن اسمه معروف وشعره متداول حتى سمع به النبي الكريم، وقد اعتبر هذا الذكر شرفاً له.

أما سؤالكم الثالث فهو:

- ما الذي توحى به إلينا حكاية توبة هؤلاء الثلاثة من أصحاب رسول الله، من حيث دلالتها على صدق إيمانهم وطاعتهم للرسول صلى الله عليه وسلم؟

وإجابة على هذا السؤال أقول:

- يتبين لنا جلياً من واقع الحكاية التي سقناها في الجلسة الماضية أن الثلاثة يُعرفون بأنهم تخلّفوا عن الخروج إلى غزوة تبوك بدون سبب يلزمهم بذلك، وإلا لكانوا تقدّموا إلى الرسول الكريم بإبداء الأسباب وهو - دائماً - يقبل الأعذار، وهذا هو ما أشعرهم بالتقصير تجاه دينهم وتجاه الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد ذكر كعب بن مالك أنه لم يجد سبباً ملائماً يمكن أن يقوله لكي يرفع عن نفسه الحرج، ولم يجد مثله رفيقاه سبباً ملائماً فكان الصمت حليف الثلاثة، وكان مع الصمت الحزن والانكسار إلى أن منّ الله عليهم جميعاً فنزلت الآية الكريمة في سورة التوبة التي تعلن أن الله سبحانه قد تاب عليهم. وبصدق إيمانهم، وبُعدهم عن النفاق، ومعرفتهم بأنه لا عذر لهم فيعتذرون، ثم توبتهم إلى الله سبحانه فقد أنعم الخالق جلّ شأنه عليهم برضاه ومغفرته.

هذه هي الأسئلة الثلاثة التي اخترتها من بين أسئلتكم لكي أردّ عليها. ولكني أرى أن من الأفضل أن أضيف إليها سؤالاً كنت قد استبعدته، ولكني أرى أن من الأفضل أن أعود إليه، وهو:

- هل نستطيع أن نعرف شيئاً عن شعره الذي تحدّث فيه عن الإسلام ومعاركه ضد الشرك؟

نعم، إن من الممكن ذلك، فله ديوان مطبوع منذ سنة ١٩٦٦م، وهو محقق تحقيقاً جيداً بحيث نال محققه الأستاذ سامي العاني بموجبه درجة الماجستير في الأدب العربي من كلية الآداب جامعة القاهرة، وكان ذلك في سنة ١٩٦٤م.

وفي شعره رثاء لرسول الله بعد طول مديح وثناء، وفيه وصف للمعارك التي شهدها المسلمون، وردُّ على عدد من الشعراء الذين كانوا يهاجمون الدعوة الإسلامية، ولقد كان بالمرصاد لكل من يكيّد للدين أو يتعرّض بالسوء إلى الرسول الكريم أو إلى أيّ من أصحابه.

لقد كان كعب بن مالك شاعراً وكان فارساً مدافعاً عن الدين، وكان ينشد شعره عند احتدام المعارك، وله قصيدة جيدة قالها حين عزم الرسول صلى الله عليه وسلم على السير إلى الطائف رغبة في إدخالها إلى حوزة الإسلام، وقد كان مطلعها:

قضينا من تهامة كل ريب

وخير ثم أجمنا السُّيوفَا

نُحَيِّرُهَا ولو نطقنا لقلت

قواطعهنّ دوساً أو ثقيفا

وانتهت المعركة بالنصر وعاد المسلمون وهم سعداء به.

وهناك أبيات لا تزيد عن خمسة تدل على تعلّقه برسول الله صلى الله عليه وسلم وحزنه عليه يوم وفاته صلى الله عليه وسلم، وهو فيها يتخيّل امرأة تبكي ميتاً من أهلها، وتلطم خدها لشدة ألمها لفقده، فعاب عليها ذلك، وقال: إن فقد رسول الله أهم بكثير ممن فقدت أيتها الحزينة، ثم واصل في ذكر الصفات الكريمة التي يعرفها عن رسول الله والتي بها عرفه المسلمون وآمنوا برسالته، يقول الشاعر:

وباكية حراء نُحزن بالبكا

وتلطمُ منها خدّها والمقلّدا

على هالك بعد النبي محمد

ولو علمت لم تبك إلا محمدا

فُجِعنا بخير الناس حياً وميتاً

وأدناه من ربّ البرية مقعدا

وأفزعهم فقداً على كل مسلم

وأعظمهم في الناس كلهم يدا

لقد ورثت أخلاقه المجد والتقى

فلم نلقه إلى رشيداً ومُرشدًا

هذا هو مجمل إجاباتي على أسئلتكم، وأرجو لكم التوفيق، وعيدكم مبارك إن شاء الله.